الاغتراب الثقافي لدى الشباب العربي المبدع

رُلى براق يحيى رجب(*)

الاغتراب الثقافي ظاهرة يمكن رصدها في واقعنا اليومي، من خلال نظرة متفحصة لحال المثقفين والمبدعين في مجتمعاتنا العربية، لنعرف أن كثيراً منهم يعاني اغتراباً عن ثقافة العصر، ولعدة أسباب، منها دينية ومنها سياسية ومنها اقتصادية. وبعضهم يعاني اغتراباً عن ثقافته الحقيقية الأصيلة التي تمثل المجتمع الذي يعيش فيه؛ فالكثير منهم لا يستطيع المزج بين ثقافته والثقافة العالمية فيبقى مشتتاً وبلا ملامح تحدد هويته.

وقبل الحديث عن الاغتراب الثقافي لدى الشباب العربي المبدع، لا بدّ من تبيين أن المثقف يشمل المبدع وغير المبدع، وحديثنا هنا سيقتصر على المبدع، والشباب هم الفئة المرصودة. وقبل التعمق في تفاصيل الموضوع لا بدّ من تبيين مختزل لمفهومي الاغتراب والثقافة، فالاغتراب هو الانفصال والعزلة عن الواقع المحيط، وعدم القدرة على تعبير المرء عن مشاكله، وفقدان الهوية، وتشوّه ملامح الذات الجوهرية.

أما الثقافة ـ كما اتفق أغلب المنظرين على تعريفها ـ فهي ذلك الكل المعقد الذي

(*) طالبة وكاتبة... كلية الآداب، قسم اللغة العربية، جامعة الموصل، العراق.

يتضمن المعرفة، والمعتقد، والفن، والخُلق، والقانون، والعادات الاجتماعية، وأية إمكانيات اجتماعية أخرى بل وطبائع اكتسبها الإنسان في مجتمعه. فهي بذلك نتاج التلقي السمعي والبصري، وكل ما هو تقني وحديث، حيث لا يُعدّ المثقف مثقفاً في زمننا هذا إذا لم يكن متصلاً بالتقنيات الحديثة ومتفاعلاً معها، كالإنترنت مثلاً.

ويعاني الشباب العربي اغتراباً ثقافياً لعدم وجود هدف معين يضعه أمامه ويسعى لتحقيقه، فيصبح تفكيره عقيماً لا يثمر عن هوية محددة. أو أن هدفه يتعارض مع القيم الاجتماعية والأخلاقية التي تعتنقها الجماعة المنتمي إليها، أو أنه ينعزل عن الثقافة العامة للمجتمع وعن أهدافها، فيشعر أنه غريب عمن حوله.

وغالباً ما يرتبط الاغتراب بوجود الدكتاتورية في المجتمع، سواء من ناحية القيم والتقاليد السائدة في المجتمع، التي لا تسمح بحرية التغيير والتعبير، أو من حيث القمع الفكري الذي تمارسه السلطة السياسية أو الاقتصادية في المجتمع، وحتى السلطة الدينية، خاصةً إذا تفشّى فيها الجهل والخرافة والدجل؛ فإنها تخشى على مكانتها من أفكار المثقفين الذين قد يؤثرون على الناس البسطاء إذا صدقوهم لأنهم يتعاملون معهم على أنهم منهم.

وغالباً ما يحمل الشباب لواء التغيير والتجديد في المجتمع، لأنهم محمّلون بالحيوية وعنفوان الثورة. فيكثر قمع هذه الفئة، وتضيّق في وجههم الطرق. ففي الجامعات العراقية، مثلاً، مراقبة شديدة على المبدعين والمثقفين والمفكرين من الشباب الذين يحملون آراءً تدعو إلى الثورة والتغيير، وتدعو إلى كسر زجاج اللامبالاة ومواجهة الحياة. فلا يُسمح بنشر أي نتاج، حتى في الجداريات الطلابية، إلا بموافقة المسؤولين في الكلية أو القسم، فيقبلون ما يتفق مع سياستهم ويرفضون ما يخشون تأثيره في الشباب.

ويعاني الشباب المثقف الموهوب أو المبدع من عدم قدرته على تحديد ذاتيته وجوهريته لأنه يتخبط بين تقاليد المجتمع وقوانين السلطة الخانقة للإبداع من جهة ورغبته في أن يثبت وجوده المستقل من جهة أخرى. وتمتد جذور هذا الضياع إلى تربية الطفل في مجتمعاتنا العربية حيث لا يُمنح حريته في التفكير والتعبير بحجة أنه قاصر عن الفهم. كذلك لا تشجيع ولا مساندة للأطفال الموهوبين، إلا نادراً، فيولّد ذلك شعوراً لدى الإنسان بأن لا قيمة له، وأنه فرد غير فعال في المجتمع، وأنه غير قادر على تحقيق ذاته.

وهناك اغتراب ثقافي ناتج عن اختلاف الانتماءات داخل المجتمع الواحد. ففي مجتمعنا العراقي، مثلاً، يُلاحظ التعدد الطائفي والقومي والديني، وانغلاق هذه الانتماءات على نفسها، مما يسبب اغتراباً لدى الشاب الذي يريد أن يخرج للعالم كله، ولكنه يتأثر بتقاليد الجماعة التي ينتمي إليها، وبثقافتها، ويدين بالولاء لها، فيكون مقيداً بما نشأ عليه من أن ولاءه لجماعته يستوجب عدم التواصل مع بقية طوائف المجتمع؛ فيكون الشاب متعصباً لثقافته الخاصة ضد الثقافات الأخرى، ولا يحاول أن يتعرف إلى الآخرين والاندماج معهم، مما يجعله محدود التفكير والنظرة إلى المستقبل.

وهناك اغتراب ثقافي ناتج عن تمسك الكثير من الشباب المبدع بالأساليب القديمة، والابتعاد عن الحداثة في الأدب والفن، وعدم الامتزاج بالواقع الإبداعي المتواجد في عالم اليوم. فهو متمسك بالقديم بدعوة أنه يمتاز بالأصالة والقيمة، ولا يحاول أن يضفي الأصالة والقيمة على نتاجه هو بالتجديد، وبإنتاج عمل (أدبي أو فني) يمزج القديم بالحديث يعبر به عن واقعه. فهو يغترب بثقافته عن الواقع، ويغترب بواقعه عن الثقافة الحديثة. وهناك من يفعل العكس، إذ يتمسك بالحداثة ويترك ثقافته القديمة ولا يأخذ منها شيئاً، فيبقى عاجزاً عن التواصل مع مجتمعه وواقع مشاكله.

وهناك اغتراب ثقافي ناتج عن نظرة الشباب المبدع إلى المجتمع نظرة فوقية، فهو لا يحاول أن ينزل من برجه العاجي النرجسي ليمتزج بالمجتمع ويعرف مشاكله عن قرب، ويحسّ بآلامه وطموحاته وأحلامه. فكثير منهم يرى أن الثقافة تُقاس بعدد الكتب التي قرأها، وبالموسيقى الكلاسيكية أو السيمفونيات العالمية التي سمعها، وبعدد معارض الفن التشكيلي التي حضرها. ولكن هذا غير كافٍ على الرغم من أهميته، فلا بدّ أن يندمج بذوق المجتمع فيسمع معهم الموسيقى الشعبية ليفهم شعورهم، ويشاهد حياتهم الواقعية وما فيها من ألوان البؤس والشقاء في الحياة الصعبة القاسية التي يعانون. ولا بدّ أن يختلط بهؤلاء البسطاء ويسمع منهم ليفهم لغتهم ويستوعب تفكيرهم ليقدر حينذاك أن يعبر عنهم بصدق. فإن لم يعش المبدع حالة وجدانية لن يستطيع أن يعبر عن فكرته بصدق وعمق فني وواقعية.

ويمكن رصد حالة اغتراب مهمة في نتاج الشباب المبدع الذي يبتعد عن التقنيات الحديثة، فلا يستطيع أن يجذب أقرانه إليه. فأغلب الشباب الذين يملكون

موهبةً أدبية أو فنيةً يأنفون التقنيات الحديثة ويهزأون بها وكأنها عبارة عن نوافذ للتسلية والترفيه الفارغ، في حين أن هذه التقنيات تجذب شريحة كبيرة من الشباب غير المثقف أو المبدع. وأقصد بهذه التقنيات الكومبيوتر ولا سيما الإنترنت والموبايل وكل الأجهزة المرئية والسمعية. فلكي يقدر المبدع أن يجذب أقرانه إلى ما يريده، وهو بالتأكيد يوجه خطاباته إليهم بما أنه يعبر عن مشاكله الواقعية التي تشبه مشاكلهم، لكي يستطيع جذبهم، لا بد له من مخاطبتهم بما يناسبهم. ولا يعني هذا أن ينزل إلى مستواهم، وإنما أن يرفعهم إلى مستواه، وهذا يتم إذا أحسوا أنه مثلهم، وأن اهتماماته من اهتماماتهم، وأحلامه من أحلامهم. فلا يصح أن ينعزل عنهم بحجة قصورهم الفكري. فهو يحمل رسالة مهمة هي تطوير مجتمعه ومساعدة أقرانه وإخوانه لبناء مستقبل أفضل. يُلاحظ ابتعاد الشباب المبدعين عن هذه التقنيات وخاصة الإنترنت، فلا يدخلون هذا العالم ولا يعرفون ما يدور فيه، وكيف يتعامل به أقرانهم من الشباب بعضهم مع بعض، فبذلك يكون نتاجهم غريباً عن واقع أقرانهم ولا يلقى الصدى الذي أُنتج لأجله، فتؤدي حالة الاغتراب الثقافي إلى تقصير الثقافة عن أداء دورها الحقيقي، وبالتالي تقصير المبدع عن تحقيق أهدافه وأحلامه وتحديد ملامح المستقبل الذي يصبو إليه. وهذا لا يعني أن ليس هناك شباب عربي مبدع استطاع، بما يتمتع به من ثقافة واسعة ومعايشة وجدانية لكل جوانب الحياة، أن يندمج بالمجتمع ويعبّر بأسلوب راقٍ عن قضايا واقعه ومشاكله.